الشريف الجرجاني ومبادئ المصطلحية

Al-Sharif Al-Jarjani and the principles of terminology

عبد الغفور فردي [1]*

جامعة محمد الصديق بن يحيى،(الجزائر)

a.ferdi@univ-jijel.dz

تاريخ الإرسال:2021/05/20	تاريخ القبول:2021/12/14	تاريخ النشر:2022/06/10

الملخص:

يقدم البحث دراسة حول الشريف الجرجاني، لكونه ذاك المصطلحي التراثي البارز، وبالأخص يتناول هذا البحث بعض مبادئ المصطلحية المعاصرة التي سطرتها المجامع اللغوية العربية فيما يخص وضع المصطلح، وشروطه وضوابطه، ثم محاولة الكشف عن هذه المبادئ في التراث اللغوي العربي، مع إعطاء نظرة نقدية لبعضها بالمقاربة مع ما جاء في هذا التراث، وخصوصا عند الجرجاني في كتابه التعريفات، ثم في كتب النحو ابتداء من الخليل وسيبويه.

الكلمات المفتاحية: الشريف الجرجاني، التعريفات، المصطلحية.

Abstract:

* عبد الغفور فردي

The research presents a study on Al-Sharif Al-Jarjani, as he is a prominent heritage terminology, and in particular this research deals with some of the principles of contemporary terminology laid down by the Arab linguistic councils regarding the development of the term, its conditions and controls, and then an attempt to reveal these principles in the Arab linguistic heritage, while giving a critical view of some of them with an approach. With what was mentioned in this heritage, especially by Al-Jarjani in his book Al-Tarif, then in the grammar books, starting from Hebron and Sibawayh.

Keywords: sharif al-jarjani, book of definitions, terminology.

مقدمة:

الشريف الجرجاني، أشهر من نار على علم، أول مصطلحي في تاريخ العربية من خلال معجمه التعريفات، وذلك حينما نعد مفاتيح العلوم للخوارزمي كتابا في تصنيف العلوم، وقبله بكتاب منسوب إليه أيضا في مصطلح الحديث سُمي: "الديباج المُذَهَّب في مصطلح الحديث"، وهذا بحث مصطلحي تطبيقي خالص، لا تعنيه التنظيرات الاصطلاحية المسطَّرة من مدارس وهيئات عدة[1]، أو لنقل على الأقل يُعتمد عليها في محاولة الكشف على سَبق الجرجاني في المجال، ذلك أنّ البحث أصلا متخصص في مدونة عملية تنتسب إلى الفرع الثاني من فروع المصطلحية، الذي مجال اختصاصه صناعة المصطلح، وتوثيقه، وتقييسه وتنميطه، وإخراجه في شكل معجمات اصطلاحية ورقية أو إلكترونية[2].

اتَّسم الجرجاني مثل غيره من المعجميين بوعي اصطلاحي كبير مكّنه من بَدْعِ طريقة اصطلاحية علمية منهجية، تعرِضُ لمصطلحات العلوم المقصودة منها، وكذا علوم الآلة، تسهيلاً للناهلين من مظان العلم، وقد كان ذلك صناعة

اصطلاحية محضة، وذلك بتصريح الجرجاني نفسه في تقديم كتابه، والسبب أنّه لم يجتهد في صناعة تلك المصطلحات، وإنما استقاها من مصادرها المعرفية الخاصة بكل حقل، قال الشَّريف في ذلك: «فهذه تعريفات جمعتها، واصطلاحات أخذتها من كتب القوم، ورتبتها على حروف الهجاء من الألف والباء إلى الياء؛ تسهيلا تناولها للطالبين وتيسيرا تعاطيها للراغبين»[3]

2. منهج الجرجاني في التعريفات:

على الرغم من أن الجرجاني قد صرّح بلفظ الاصطلاح في تقديم كتبه، إلاَّ أنه لم يجعل من ذلك عنوانا لكتابه، وجعله تحت عنوان التعريفات، وعلى الرغم من أن النزاع –إن أمكن القول– كان قد فُضَّ حول لفظي الاصطلاح والمصطلح، ذلك أن المتقدمين لم يستعملوا لفظ المصطلح بحجة أنه يتعدّى باللاحقة "عليه" ليكتمل مبنى ودلالة[4]

لأجل هذا وجب أن نقول إنَّ ما بين "التعريف" و "المصطلح" لا يعدو أن يكون اتساعا في المفهوم، أو ضيقا فيه، ذلك أن المصطلحية المعاصرة تتخذ من التعريف آلية من آلياتها التي تساعد على الكشف عن مفاهيم المصطلحات إن مفهوما، أو خصائصَ، ثم يدخل طرف آخر ضمن هذا المجال يُعرف بـ"الحد" والذي هو أصل للفظ المصطلح في اللهجات الأوروبية دون استثناء، ذلك أن كلمة مصطلح terme، في اللاتينية والإغريقية هو terminus، التي تعني الحد[5]

انتقل بعدها عن طريق المجاز[6] إلى ما معناه الحدود المفهومية الفاصلة بين مصطلح وآخر، أو حتى في المصطلح نفسه، حين الانتقال من إلى آخر.

حينما نذهب إلى الجرجاني نجد أن هذه مصطلحات ثلاث لا تتباعد مفهوميا، بل يأتي أحدها بعد الآخر في شكل تراتبي، ذلك أنها تكتمل بعضها البعض لتشكل مجموعة أخرى من المصطلحات يُمكن أن نجملها فيما يلي:

التعريف: نختص ههنا بذكر التعريف اللفظي، وهو أن يكون اللفظ واضح الدلالة على معنى، فيفصَّل

بلفظ أوضح دلالة على ذلك المعنى[7]

الحد: تردُ كتب عديدة في التراث اللغوي العربي تحت عنوان الحد، ومن بينها كتبا الحدود في النحو للرماني، وغيره كثير، وقد نجد الحد كمصطلح عند كثير من العلماء، ومن بينهم علماء الأصول.

نجد أنَّ حدَّ الشيء عند الكفوي في الكليات هو«الوصف المحيط بمعناه، المُميِّز له عن غيره»[8]

يؤكد قول آخر للكفوي على ما استحضرناه سابقا من أن السّرد المعرفي لهذه المصطلحات يوصل بالضرورة إلى مصطلحات أخرى تتكامل معها، وقد ورد ذلك أيضا في مبادئ المصطلحية المعاصرة، قال الكفوي: «الحد في اللغة: المنعُ والحاجز بين شيئين (...) والنهاية التي ينتهي إليها تمام المعنى وما يوصل إلى التصور المطلوب»[9]

الحاصل أن الحدَّ يُوصل إلى التصور، كذلك يُوصل التصور إلى المفهوم، وكل منهما خاص بالتسمية أو بالمصطلح الذي هو عماد الدرس الاصطلاحي،

ويمكننا أن نحدد التصور في عدة متون على أنّه «عنصر فكري وتكوين ذهني يمثل موضوعا فكريا ذاتيا»[10]

من هنا يبدأ النسق التصاعدي في فرض نفسه أكثر، ذلك أن التصورات لا تلبث أن تتحول إلى مفاهيم، والمفاهيم لاشك تحتاج إلى طريقة تجعلها أكثر وضوحا بالنظر إلى أنها ستقترن بصفة الابستيمولوجية التي تخرجها من الإطار الفكري الذاتي الذي يتقوقع فيه التصور، لذلك يرتقي المفهوم ليصبح «عبارة عن محتوى قابل للوصف بواسطة تعريف معجمي في مقابل المتصور، وهو محتوى يتم تحديده بالكامل بواسطة تعريف لازم»[11]

نُجمل القول الآن في هذه الأمور حينما نقول إن هذا يتشكل تحت عنوانين رئيسين آخرين هما: الجهاز الاصطلاحي، والمنظومة المفهومية لأي علم كان، لا يتشكل أي علم من غير جهاز اصطلاحي أو منظومة مفهومية، لذلك فإن التصورات المستحدثة يُمكن أن تُسحب من هذا الإطار بالنظر إلى حداثتها، عدا ذلك يمكننا أن نُولج كل تلك التصورات التقليدية التي أكثر تجريدية، ذلك أنها تحولت من مدَّة إلى مفاهيم علمية، ثم إلى تسميات جاهزة، أي إلى مصطلحات.

بالنظر إلى هذه الحالة، نقول إن التعريفات مرتبطة بالمفاهيم، أي بالتسميات الجاهزة التي شكلت لحد الآن جهازا اصطلاحيا ومنظومة مفهومية مترابطة بشكل مثالي، ولا يمكن فصل أحد أجزائها عن الآخر[12]، وبالتالي فالتعريفات هي جزء من هذا النظام، وينبغي أن نقول إن الحدود خاصة بالمفاهيم أيضا، لكنها لا تنطبق كليا مع التعريف، هي فقط تختص برصد تلك التشابهات الطفيفة مفهوميا

بين مصطلح وآخر، خصوصا وأننا نعرف أن ما اصطلحنا عليه "**منظومة مفهومية**" يفرض تقاربا شديدا بين مصطلحات الحدّ، والتعريف، والتصور، والمصطلح، إلى درجة العُسر في التفريق بينها.

3. بين المجاز والاصطلاح عند الجرجاني:

يمكننا حين الحديث عن هذا الأمر أن نكشف عن سمة المصطلحي التي اتسم بها الجرجاني، خصوصا حين حديثه عن لفظ الاصطلاح، وارتباطه بالمجاز من حيث تشكله.

الواضح أن الجرجاني قد عَمَدَ إلى تبيان مفهوم المصطلح من خلال مصطلح آخر، هو المجاز، وتلك طرق إجرائية عدّة يوظفها المعجميون والمصطلحيون في تعريفاتهم، من بينها التعريف بالتضاد، قال الجرجاني: **الاصطلاح:** عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما يُنقل عن موضعه الأول[13] الذي هو الموضع المعجمي، والذي يُغني عن استحداث ألفاظ أخرى في اللغة، وقال أيضا: إخراج اللفظ من معنى لآخر لوجود مشابهة بينهما[14]، وهنا خصَّص أكثر، فألزم أن يكون هذا الانتقال لمشابهة بين سمات الشيئين، ولا تختص المشابهة إلا بالمجاز، والذي أراده الجرجاني ههنا سمةً خاصة في التعريف، وثبتًا لبيان أن المصطلحات في العربية صُنعت بهكذا آلية، ومن ذلك مصطلحات الخليل العروضية.

لا نُنكر وجود آليات أخرى، منها الاشتقاق، والنحت، والتعريب، وهنا نستحضر منهجية صناعة المصطلح في الثقافة العربية، التي سُطِّرت مبادئها في

ندوة الرباط 1981م[15] ، وتم الاتفاق على أن التراث هو أول آلية على المصطلحي دون المترجم أن يلتزم بها، نقول هذا ونحن نعلم زلل المترجمين حين مقابلة جهاز اصطلاحي تراثي بمنظومة مفهومية حداثية لسانية أو نقدية، تتفرد بخصوصيات حضارية مغايرة، نستثني منهم عبد القادر الفاسي الفهري، وأحمد المتوكل[16]

كان المجاز الآلية الأولى التي صنعت من خلالها الأجهزة الاصطلاحية للعلوم العربية التراثية، وخصوصا علوم الآلة منها، ذلك أنها حينما لم تنقل مصطلحاتها من معانيها المعجمية، عمدت إلى نقلها من أجهزة اصطلاحية لعلوم أخرى نشأت قبلها، عُرفت بالعلوم المقصودة أو علوم الدين[17]، يُثبت ذلك أن الجرجاني في التعريفات عمد إلى إيضاح الاصطلاح عن طريق المجاز ثم عن طريق الاتفاق الذي لا يخلو منه مصطلح في أية لغة كانت.

هنالك مبدأ آخر من مبادئ المصطلحية المعاصرة ينبغي أن يُنتقد، أو على الأقل أن يُعدّل ليلمس شيئا يسيرا من العلمية، وهو الذي نصَّ على أن المصطلح الواحد للمفهوم الواحد، لا غير.

في التراث اللغوي العربي كما في الدرس الحديث نجد ما يُخالف هذا في عدة علوم، بل حتى في العلم الواحد، قبل أن نسرد لذلك نقدم أمورا أخرى يختص بها المصطلح حين يُذكر، منها:

*أن المصطلح مقرون بسياق معين حين استعماله، ويتكفل هذا السياق بإيراد المفهوم العلمي اللازم لا غير.

*يتلقى المصطلحَ متخصصٌ في المجال المُوظَّف فيه، فلا يُلزِمُه غير ما يلزمُ من المعنى /المفهوم.

في التراث اللغوي العربي، وفي علم النحو بالخصوص سنجد أن كثيرا من المصطلحات انتقلت بين مفاهيم عدة في العلم نفسه، قبل أن تنتقل إلى علوم أخرى بمفاهيم جديدة، من مثل فقه اللغة، ويمكننا أن نطرح هنا أمثلة كثيرة هي كالتالي: مصطلح التَّصرف في النحو، مصطلح الصلة في النحو، مصطلح الوصف في النحو.

تحت مبدأ " لا مُشاحة في الاصطلاح" أطلق النحويون من الخليل وسيبويه وصولا إلى علماء المدرسة الكوفية تسميات عدَّة للمفهوم نفسه، احتكاما لسعة هذا المفهوم، أو التصور، ثم انتقالا إلى الوظيفة التي يؤديها المصطلح في المتن اللغوي–أيُّ متن كان– وهنا ينبغي أن يُقارب المفهوم بالنظر إلى موقعه من التسميات التي عُرضت له، ونحن نعلم أن هذه التسميات قد اختيرت بالنظر إلى معانيها المعجمية، ثم بالنظر إلى الاختلافات الطفيفة التي تحملها هذه المعاني، سيظهر أن الضبط المفهومي لكثير من المصطلحات النحوية قد بات يحمل كثيرا من الخلط، يمكننا أن نمثّل على الأمر بتلك الاختلافات التي شابت كتابات الخليل وسيبويه، ثم الكسائي والفراء في الجانب الكوفي، والتوتر الكبير الذي حملته مصطلحات من مثل، النسق، والترجيح، والصلة، والزيادة، والإقحام، والإلغاء، وغيرها.

وتتجه محاولة إضفاء العِلمية على هذا الأمر إلى القول إن المصطلحات التي تحمل فيما بينها تقاربا مفهوميا من مثل الإقحام والزيادة يمكن الفصل بينها

وظيفيا من خلال الرجوع إلى معانيها المعجمية، مصطلحات أخرى ثبتت تاريخيا أنها جاءت اختياريا لغاية معينة، ومن ذلك مثلا مصطلح النسق الذي يُعزى إلى الخليل، ثم فرضته كثرة الاستعمال عند الكوفيين الذي كانوا تلاميذه فنُسب إليهم.

في جانب آخر تلوح الصّلة كمصطلح قد تغلَّب على الزيادة لسبب ديني، وهو أن الشواهد اللغوية كثيرا ما كانت مستمدة من النص الديني (القرآن الكريم) فامتنع النحويون عن استعمال الزيادة في القرآن تحرجا.

4. المصطلح النحوي وتعدد التسمية:

مصطلح النَّسَق:

ذُكر النَّسق باصطلاح العطف، وقد جاء على يد الخليل في "المنظومة النحوية" المنسوبة إليه، قال:[18]

وَإِذَا نَسَقْتَ اسماً عَلَى اسمٍ قَبْلَهُ *** أَعْطَيْتَهُ إِعْرَابَ مَا هُوَ مُعْرَبُ

فَانْسَقْ وَقُلْ بِالوَاوِ قَوْلُكَ كُلَّهُ *** وَبِلاَ وَثُمَّ وَأَوْ فَلَسْتَ تُعْقَبُ

انتقل المصطلح إلى مباحث الكوفيين، وهناك استعمل بشدة، عند الفراء والكسائي، واستعمل باصطلاح ومعنى العطف، وهو ما يخصنا ههنا، قال الفراء في الآية الكريمة:[19] ﴿ ❻ ❞ ❼■ ◆ ③ ❐ ◆❐ ❸ ▪ ◆❐ ❷ ❸ ❐ ❿ ⓪ ⑨ ﴾ الحج،45: والبِئرُ والقصرُ يُخفضان على العطف على العروش.

ولم يخطئ محمد شيبة في رسالة " النحو الكوفي في شرح القصائد السبع الجاهليات لأبي بكر بن الأنباري" حينما قال: فيظهر من ذلك أنه يريد بالعطف مجرَّد الإتباع في الإعراب، وهذا يجوز[20] ولو أنَّه انتبه لقول الخليل في البيت الشعري أعلاه لقال ذلك وأيّد به.

مصطلح الحشو:

جاء في المفصَّل لابن يعيش: « والصلة والحشو من عبارات الكوفيين»[21] وربَّما قد أخطأ، والسبب أن الحشو ظهر لدى البصريين، ولم تفرضه كثرة الاستعمال مثلما حصل لدى الكوفيين، ولذلك أخطأ ابن يعيش.

الذي يهمُّنا أنه استعمل بمعنى صلة الموصول عند سيبويه، وبمعنى الزائد عند الكسائي، وبمعنى الزيادة عند الفراء[22].

4. خاتمة:

ختاما، نستحضر أن التراث اللغوي العربي زخر برؤية اصطلاحية معرفية بارزة، جسدها مصطلحيون كثر من أمثال الشريف الجرجاني، والكفوي في كشاف اصطلاحات الفنون، وقبلهما المعجميون الذين ألفوا في صنف معاجم الموضوعات، والحاصلُ أن بعضا من مبادئ المصطلحية المعاصرة ينقضها هذا التراث، لأسباب عدّة أولها التمكن الكبير من اللغة بكل مستوياتها، ومن المتن الديني المتمثل في القرآن، لا أدلَّ على ذلك من الاستعمالات الاصطلاحية المتعددة لبعض المفاهيم التي ذُكرت.

يمكننا أن نستشف أيضا من المعاجم الاصطلاحية هذه النظرة، ومن التعريفات للجرجاني بالخصوص، وذلك في إيراد الفروق الدلالية الطفيفة بين مصطلحات عدة متقاربة، ثم من التدرج المفهومي في سرد هذه المصطلحات من الأخص إلى الأعم، أو العكس.

يجب القول إن بعض مبادئ المصطلحية المعاصرة معروضة للمراجعة وشيء من التدقيق، ذلك أن المصطلح دال متخصص، وهو مدروس بطريقة علمية دقيقة، وقبل ذلك يحكمه أمران اثنان يمثلان بالغ الأهمية بالنسبة لكل علم من العلوم استمد مصطلحاته من بيئته الثقافية، أو حتى من خارجها، إنهما التصور والمفهوم، ولذلك استُوجِبَ قبل أن يُراعى المصطلح تسمية ودالا، يراعى كل من التصور والمفهوم سواء في معرفة خصوصيات المصطلح الحضارية الأصلية، أو تلك الدخيلة التي جلبها معه إن صحت عملية نقله، لأنه – المصطلح– حمَّالُ مفهوم، والمفهوم حمال تصور، والتصور حمَّال خصوصية بيئية وحضارية.

5. ملاحق:

[1] للاطلاع أكثر في هذا المجال يُنظر: علي القاسمي، علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية. علي القاسمي– مرجع سابق، ص263.

[2]

[3] الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص 5.

[4] يمكن في هذا الصدد الاطلاع على مقال: عبد العلي الودغيري، كلمة مصطلح بين الصواب والخطأ، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 48، ديسمبر 1999، ص 11، والذي يعرض لاستعمالات المصطلحين تاريخيا والأسباب التي جعلت كثيرا من المتقدمين يتبنون مبدأ– الرفض، ثم

الأسباب العلمية التي أدت إلى شيوع استعمال لفظ مصطلح بعد أن كان يُقرن باللاحقة "عليه"، والتي من بينها منهج التخفيف الذي استعملته العرب في كثير من الإشكالات المعرفية في العلوم آنذاك.

ينظر : مصطفى طاهر الحيادرة، من قضايا المصطلح اللغوي العربي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2003، ص 16.[5]

[6] المجاز أحد أهم المباحث المعرفية التي قامت عليها المصطلحية من التراث إلى الحداثة، في التراث اللغوي العربي، سنجد أن التكاملية في العلوم قد كانت السمة الأبرز، وقد نتج عن ذلك انتقال عديد المصطلحات بين العلوم، الدينية منها واللغوية. في الدرس الغربي الحديث هناك تداخل معرفي كبير بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية، خصوصا اللسانيات الحديثة التي شكلت كثيرا من جهازها الاصطلاحي من علوم الرياضيات، والفزياء، والطب، والفلك، وغيرها.

الشريف الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت،ط 1، 1983، ص 85.[7]

[8] الكفوي أبو البقاء، الكليات معجم المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، د ط، د ت، ص 391.

المرجع نفسه، ص 391.[9]

[10] فضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، د ب، ط 1، 1994، ص 171.

[11]خليفة الميساوي، المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013،ص 51.

[12] ينظر في هذا الصدد: كتاب توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط 1، 2007، ص 34، 35، 54، 59.

الجرجاني، التعريفات– مرجع سابق، ص 28.[13]

المرجع نفسه، ص28.[14]

[15] ينظر : أحمد شفيق الخطيب، ملاحظات وأفكار حول: ورقة عمل ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح، مجلة اللسان العربي، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد 24، ص 113–123، ومحمد علي الزركان، الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، 1998، 424–426.

[16] ينظر : كتابات أحمد المتوكل، وعبد القادر الفاسي الفهري، من بينها اللسانيات واللغة العربية، تتجسد ضمن هذه الكتابات الأجهزة الاصطلاحية المستحدثة لمقابلة المفاهيم اللسانية الغربية، ذلك أننا –حسب الفهري– لا يمكن أن نقابل منظومة مفهومية جديدة بجهاز اصطلاحي كلاسيكي، لاعتبارات الخصوصيات الحضارية التي يحملها المصطلح.

[17] ينظر: طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 2، د ت، ص 76.

[18] المنظومة النحوية المنسوبة إلى الخليل، تحقيق أحمد عفيفي، المكتبة المصرية، د ط، 1995، ص 54.

[19] الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وآخران، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط 1، د ت، ج 2، ص 228.

[20]محمد شيبة، النحو الكوفي في شرح القصائد السبع الجاهليات لأبي بكر بن الأنباري، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1988، ص 65.

[21] ابن يعيش، شرح المُفصّل، تحقيق مشيخة الأزهر، إدارة الطباعة المنيرة، مصر، د ط، د ت، ج 8، ص 128.

[22] الفراء– مرجع سابق، ج 1، ص 58.